دبلوماسية النبي صلى الله عليه وسلم

أ. نعيمي زيغمي / أ. سفيان قوق
جامعة عمار ثليجي الأغواط
الجزائر

ملخص البحث باللغة الانجليزية

After his death, the Prophet Mohamed (peace be upon him) left a rich legacy in terms of the art and rules of diplomacy. He established committed ties with many kings, and concluded strong agreements with leaders of tribes in Arabia. In addition, he bore the responsibility to lay the foundations of a state in the region of Arabia where Arabs were viewed for centuries as a source of wealth for many greedy nations; just like a toy in the bloody arms of the Persians in the East and the Romans in the West. Thanks to the Prophet's wise diplomatic struggle marked with a firm determination to build a state by every possible financial, military and social means, the Arab State had become a real power ready to inherit ancient civilizations of the world in less than ten years.

The tradition of prophet Mohamed (peace be upon him) is full of successful experiences about peace or war journeys, and reconciliation or conflictual relationships. His life provided a logical proof that the relationships of the Islamic State with the rest of the world were essentially based on moderation, stability, mutual interests, and respect of human values. The noble Prophet (peace be upon him) made use of the most refined diplomatic strategies to solve conflicts and avoid the causes of war.

مقدمة:

كان لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم دورا كبيرا في نشر الرسالة الإسلامية، نظرا لما حباه الله به من صفات جذبت الناس إليه، وجعلتهم يتبعونه ويلتفون من حوله، قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[1].

المنارة للاستشارات
ww

هذه الأخلاق السامية جعلت الكافّة يولونه ثقتهم لصدقه وأمانته وحزمه وعدله وعفته، مما حمل البعض منهم على دخول الإسلام قبل أن يقرأ القرآن أو يكتمل نزوله. على حد قول القائل:

لـــو لم تكـــن فيـــه آيـــات مبينـــة لكـــان منظـــره ينبيـــك بـــالخبر

ومنذ هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، اعتمد ما يصطلح عليه في زماننا اليوم بالدبلوماسية، من أجل نشر الدين الإسلامي، فأرسل الرسل للملوك والأمراء وشيوخ القبائل في شبه الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم للإسلام، كما استقبل رسل الملوك وشيوخ القبائل وأكرمهم، انطلاقا من حسن شخصيته وتربيته العربية العريقة، وما جاء به الإسلام من قيم وأخلاق أصيلة.

ومن هنا فقد كان لدبلوماسية المصطفى صلى الله عليه وسلم الدور الكبير في نشر الدين الإسلامي، والوقوف أمام الصعوبات بحكمة دبلوماسية بارعة، تجاوزت المعضلات القائمة كلها، والسير بأحكام الشرع الإسلامي بقوة فائقة، والجمع بين الأضداد المتصارعة التي أثقلتها رواسب القرون السابقة.

من هذه المنطلقات نطرح الإشكال التالي:

ما معنى الدبلوماسية؟ وما هي أهم ركائزها؟ وإلى أي مدى يمكن أن نستشف معالمها من سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم؟

هذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال العرض التالي:

المحور الأول: ماهية الدبلوماسية في الإسلام:

نتعرض في هذا الشأن لتعريف كل من الدبلوماسية والسفارة في النقطتين التاليتين:

1_ تعريف الدبلوماسية في الإسلام

لم يشهد التاريخ الإسلامي تعريفا محددا لمصطلح الدبلوماسية، غير أن السياسة الراشدة والقيادة المحكمة والتصرف الحكيم في زمن السلم والحرب لسيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم جعلت الدبلوماسية حاضرة ومؤثرة حتى وإن غابت مصطلحا[2].

المنارة للاستشارات

وقد جاء على لسان سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: " **لو أن بيني وبين الناس شعرة لما قطعتها إن أرخوها شددتها وان شدوها أرخيتها**" [3].

وتعد هذه المقولة مرجعا للحفاظ على العلاقات البشرية وصيانتها من كل أوجه التشدد والعنف الذي يمكن أن يقصف بها، وهذا مرجعه أولا وآخرا إلى السيرة النبوية والدين الإسلامي الحنيف الآمر باللين في المعاملة والناهي عن القسوة في كل الأحوال مع المسلمين وغير المسلمين، وهو ما تعكسه فطنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحسن اختياره لرسله، فضلا عن علمه وعدله ورحمته وذكائه وخبرته في نشر رسالة الإسلام باعتباره مبعوث رب العالمين ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾[4].

هذا وتعرف **الدبلوماسية في الإسلام** بأنها: "**مجموعة من القواعد والأحكام التي تتفق مع الشريعة الإسلامية والتي تعبر عن رغبة الدولة في تعاملها مع غيرها من الدول بما يحقق مصلحتها في جميع الأحوال والظروف**"[5].

ويتضح من هذا التعريف أن مسعى الدولة في ربط العلاقات مع كافة الدول من خلال المرسل، والحرص على اختيار أحسن تمثيل للدولة بما يتماشى ويتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية من جهة، وتحقيق مصالح الدولة من جهة أخرى.

2ـ **تعريف السفارة**:

إرسال فرد أو أكثر من قبل حاكم أو مسؤول كبير، إلى حاكم أو مسؤول آخر، برسالة ذات هدف معين. وحامل هذه الرسالة يسمى سفيرا أو رسولا أو مندوبا أو ما شابه ذلك من الأسماء والصفات[6].

ومما تجدر الإشارة إليه أن سفارة من أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العرب والعجم كانت دعوية في الأساس، فهدفها تبليغ رسالة الله تعالى للعالمين، غير أنها لم تخل عن طابع إثبات الوجود وفرض الاعتراف بالدولة الإسلامية الناشئة، مع ما تحمله من التأكيد

المنارة للاستشارات
ww

على زعامة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن هنا يمكن القول: إن الغرض من هذه السفارات كان ذا بعدين: دينيٍّ ودنيويٍّ سياسيٍّ في آنٍ واحد[7].

المحور الثاني: الدبلوماسية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

يعود الفضل والأصل في سن الدبلوماسية إلى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، حيث كان عليه الصلاة والسلام أول من استخدم الدبلوماسية في نشر رسالة الإسلام، وذلك ببعث رسل إلى أمراء وزعماء وعظماء الدول إذ تعد بمثابة اعتراف دولي من جهة، ودعوة إلى دخول الإسلام من جهة أخرى[8]، وهو المنهج المنتهج من طرف المجتمع الدولي المعاصر.

وقد تمثلت معالم هذه الدبلوماسية ابتداء في المحادثات الشخصية لعموم الناس فرادى وجماعات، ثم باعتماد إرسال الرسل، وإيفاد البعثات إلى القبائل والملوك، كما تمثلت في العهود والمواثيق التي كان يبرمها صلى الله عليه وسلم بين الحين والآخر بمناسبات شتى[9].

وقد اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل نشر الإسلام، وتأمين دولته ومراعاة مصالح المسلمين جملة من الوسائل الدبلوماسية لتحقيق تلك الأهداف النبيلة نذكر منها:

أولا: الرسائل

سبقت رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم سيفه، كون الإسلام لم يبن على السيوف وحِدّتها، بل على الرسالة وفنها، هذه الأخيرة المبنية على الخطاب الملائم للمرسل إليه ومقامه، باسم محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فتظهر الحكمة شكلا ومضمونا.

وهاهو المقوقس عظيم مصر يعترف بحكمة النبي عليه الصلاة والسلام التي ظهرت في رسالته له حيث قال للسفير (الرسول): " **أحسنت، أنت حكيم من عند حكيم** "[10].ويمكن تسليط الضوء على هذه الرسائل من الناحتين الشكلية الموضوعية.

أ_الشكل:

تميزت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم بشكلها المميز، والذي تعتبره الدول اليوم نموذجا رائعا في اعتمادها إياه في العلاقات الدبلوماسية الدولية.

المنارة للاستشارات
ww

1ـ شعار الرسالة

قد مرت الرسالة بعدة مراحل قبل أن تبدأ بشعار: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ حيث كانت تكتب الرسالة تحت شعار "**بسمك اللهم** "، وبعد نزول الآية الكريمة: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[11]. ثم أصبح يعلوها شعار: "بِسْمِ اللَّهِ "، وبعد أن نزلت الآية الكريمة: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[12] انتقل شعار الرسالة إلى: " **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ**". وبعدها وفي الأخير استقرت المذكرات النبوية على شعار ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ وذلك بعد أن نزلت الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾[13].

واعتمد بعد ذلك هذا الشعار كشعار للدولة الإسلامية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما تلاه في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين[14].

2ـ جهة المرسل:

استهل النبي محمد عليه الصلاة والسلام رسائله بتعريفه بنفسه، فهو يبدأ باسمه ووصفه، ثم اسم المرسل إليه ولقبه[15]. وقد ورد في ذلك حديث وإن لم يكن سنده بالصحيح، وهو ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: « **إذا كتب أحدكم إلى إنسان فليبدأ بنفسه** »[16]. وبذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يعرّف بصفته النبوية ويكتب: « **من محمد رسول الله إلى**..... » أو: « **هذا ما كتبه النبي محمد ل**... ».

ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعتمد هذا الأسلوب لاعتبارات وأسس منها:

- أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقدم نفسه فضلا عن وصف الرسالة كزعيم الأمة ورئيس الدولة الإسلامية .
- أنه يقدم اسم النبي على أي اسم آخر مهما كانت صفته احتراما لصفة النبوة.
- في تقديمه اسمه الشريف عليه الصلاة والسلام إظهار لقوة الإسلام وعزته.

المنارة للاستشارات
ww

3ـ جهة المرسل إليه:

جاء الدين الإسلامي كدين يسر لا دين عسر، يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة –إن اقتضى الأمر– بالتي هي أحسن، وهو في جميع ذلك يعتمد أسلوب اللين في المعاملة، وينبذ العنف أينما كان[17]، ما لم تدع إلى ذلك الضرورة، والضرورة في الإسلام مقدرة بقدرها لا تتعداه، كما أن شريعة الإسلام هي في حد ذاتها رسالة تحملها رسالة توحي في شكلها ومضمونها بإعطاء الأهمية والمكانة للطرف المخاطب دون إنقاص من شأنه أو قدره. فقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يخاطب من يراسلهم بصفاتهم وألقابهم كرؤساء للدول أو ملوك أو زعماء[18]، مع أنهم غير مسلمين، وذلك حتى يبعث فيهم الطمأنينة ويطيب خواطرهم، فيدركوا أن هذا الدين دين رحمة، وأنه لم يأت لسلب سلطاتهم[19].

4ـ التصديق على الرسالة:

جاءت في مراسلاته صلى الله عليه وسلم العناصر سابقة الذكر، يتلوها التصديق – الختم عليها– بخاتمه عليه الصلاة والسلام، ذلك أنه قيل له صلى الله عليه وسلم عندما أراد إرسالَ كتبه إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام: "**إنهم لا يقرؤون الكتابَ إلا إذا كان مختومًا**". فالرسائل دون ختم لا تلقى أي اهتمام من طرف المرسل إليه، بل ولا تقرأ أصلا[20]. فراعى صلى الله عليه وسلم هذا العرف عندهم واتخذ خاتمًا من فضة، ويتجلى في هذا الموقف منه عليه الصلاة والسلام حرصه على مواكبة التطورات ومقتضيات المرحلة، والاستفادة من كل ما تقتضيه المصلحة ولا يتعارض وأحكام الشريعة خدمة للدعوة.

وكان نقْش ختمه صلى الله عليه وسلم ثلاث كلمات، في ثلاثة أسطر، تُقرأ من أسفل إلى فوق، فـ"**محمد**" آخر الأسطر، و"**رسول**" في الوسط، و"**الله**" فوق، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختَم به. كما أمر عليه الصلاة والسلام ألا ينقش على منوال خاتمه أحد، حفظا لمراسلاته من الغش والتزوير، فقد روى البخاري من قول أنس رضي الله عنه: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَقَالَ إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ وَرِقٍ وَنَقَشْتُ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ فَلاَ يَنْقُشَنَّ أَحَدٌ عَلَى نَقْشِهِ**»[21].

المنارة للاستشارات
ww

وكان ذلك الخاتم في يده صلى الله عليه وسلم، ثم في يد أبي بكر رضي الله عنه، ثم في يد عمر رضي الله عنه، ثم في يد عثمان رضي الله عنه، حتى وقع في بئر أريس في السَّنة التي قُتِل فيها عثمان رضي الله عنه[22]. والظاهر أنهم كانوا يطوون الكتاب ويجعلون عليه شيئا رطبا كالعجين وغيره، فيختمون به فلا يقرأ إلا بعد فض الخاتم، وذلك لئلّا يطلع على ما في الكتاب أحد آخر[23].

ب_من ناحية المضمون:

أول ما كانت تبدأ به المذكرات النبوية التحية وإلقاء السلام على المخاطب بالرسالة، لأن السلام معناه التحية والأمان فهو بذلك يطمئن نفوس المخاطبين ويهدئ من روعهم، ويشعرهم بأنهم في أمن وأمان مع من يخاطبهم وهو بصدد التعامل معهم.

وصيغته في التحية كانت "**السلام على من اتبع الهدى**[24]". تليها بعد ذلك عبارة: "**أما بعد**"[25].

وكان غالبا ما يختم الرسالة بالسلام[26].

ولعل أهم ما يميزها:

- دعوة الملوك والزعماء والعظماء إلى الدخول في الإسلام.
- استعمال الألفاظ الموجزة السهلة .
- التعبير عن النبي باسمه وصفته من محمد رسول الله ولا يدعو الملوك والزعماء للتخلي عن مناصبهم وأملاكهم بل للدعوة إلى الإيمان بالله الواحد والدخول في دينه الحكم بما أنزل عليه من أحكام.
- الدعوة إلى حصانة السفراء وإرضائهم معتبرا عليه السلام إن إرضاء الرسل من إرضاء المرسل. ومن ذلك ما روي من اشتراطه صلّى اللّه عليه وسلم على وفد نجران « **مؤنة رسله وضمان الحماية لهم**»[27].

المنارة للاستشارات
ww

ثانيا: اختيار الممثل الدبلوماسي"الرسول والسفير":

أسَّس رسول الله صلى الله عليه وسلم لنظامٍ سياسي راقٍ على عهده – عليه السلام – وهو ما يُسمَّى في القانون الدستوري بالتمثيل الدبلوماسي، وذلك ببعث البعوث والسفراء[28]، الذين يُمثِّلون الإسلام خير تمثيلٍ، يَنشُرون رسالتَه ومبادئه إلى الآفاق بأسلوب تطبعه الحكمة والموعظة الحسنة، والرقيُّ وبُعدُ النظر.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمتَّع بفراسة عظيمة في اختيار الرجال ومعرفة كبيرة لذوي الكفاءات من أصحابه[29]، فكان يختار لكلِّ مهمة مَن يُناسِبها، فيختار للقيادة مَن يجمع بين سَداد الرأي وحُسْن التصرف والشجاعة، ويختار للدعوة والتعليم مَن يجمع بين غزارة العلم ودَماثة الخُلُق، والمهارة في اجتذاب الناس ويختار للوِفادة على الملوك والأمراء مَن يجمع بين حُسْن المظهر وفصاحة اللسان وسُرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائية يختار مَن يجمع بين الشجاعة الفائقة، وقوة القلب، والمقدرة على التحكم في المشاعر . فكانت رسله عليه الصلاة والسلام من أولئك الرجال المعروفين بالنباهة والعلم والحلم والدراية التامة بفنون الكلام وإدارة الحوار فضلا عن القراءة والكتابة والمعرفة بلسان من يرسلون إليه[30].

أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسله من خلال هذه الرسائل مجموعةً من الحقوق لفائدة رُسُله المبعوثين إلى الملوك والأمراء عبر مختلف الأقطار والرُّبوع، وهي ما يَصطلِح عليها علماء القانون بالحصانة الشخصية، وهي أكثر عالمية من حيث القَبُول، مُفادها حُرْمة شخص المعتمِد وأشيائه وحقائبه السياسية ودار الاعتماد، وهي تقضي بتحريم كلِّ تَعرُّضٍ أو اعتداء على ذلك، وهذه الحصانة يُقِرها الإسلام بمقتضى الأمان.

ومن ذلك ما جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذِر بن ساوَى التميمي قوله: «**أما بعد، فإني أُذكِّرك الله – عزّ وجلّ – فإنه مَن يَنصَح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يُطِع رسلي ويتَّبع أمرَهم فقد أطاعني، ومَن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا** »[31].

المنارة للاستشارات
ww

فبُعوثه صلى الله عليه وسلم إلى الآفاق، والداعية لملوك وأمراء الأرض إلى دين الله الواحد الأحد تُعَد نقطة تحوُّل في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعَظُم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينيَّة وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهَّدت لتوحيد الرسول صلى الله عليه وسلم لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود.

ثالثا: في التفاوض مع الزعماء والوفود واستقبالهم:

ومما تتجلى فيه دبلوماسية النبي صلى الله عليه وسلم في أبهى صورها استقباله للوفود وقد تزين عليه الصلاة والسلام للقائهم، كما أنه كان يكرمهم بأنواع من الإكرام خاصة كالكسوة والجوائز وبسط الرداء لبعضهم، وقد أعد لهم دار ضيافة ربما سميت دار الضيفان أو دار الوفود... وهكذا[32].

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يستمع إلى مخالفيه بل يُنصت، حتى لو كانت عروضهم غير مقبولة عقلاً أو شرعًا، فكان يعطيهم فرصة الكلام والتعبير عن الرأي؛ لتتاح له بعد ذلك فرصة الكلام وشرح ما يدعو إليه..

انظر إلى هذا المثال الرائع في التحاور مع زعماء المشركين، وذلك عندما دار حوار راقٍ بينه صلى الله عليه وسلم وعتبة بن ربيعة من كبار سادة قريش.. يقول عتبة بن ربيعة وهو يساوم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك الإسلام: "يا ابن أخي، إنك منَّا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى مِن آبائهم

فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها"؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قلْ يَا أبا الوليد أسمعْ ."قال: "يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإنْ كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا

المنارة للاستشارات
ww

الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه؛ فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوى منه".

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟"قال: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: فاسمعْ مني قال: أفعل فقرأ صلى الله عليه وسلم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[33]، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك". فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: "نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به". فلما جلس إليهم قالوا: "ما وراءك يا أبا الوليد؟" قال: "ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعْر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليَكُونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّه عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به"، قالوا: "سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!!" قال: "هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم"[34].

وهذا الحوار في غاية الأهمية؛ ويعتبر دستورًا في الدبلوماسية والتفاوض، فعلى الرغم من أن عتبة بن ربيعة كان قد قدَّم كلامه بمجموعة من التهم الموجهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل على هدوء أعصابه، ولم ينفعل، إنما واصل الاستماع في أدب واحترام، وعندما قال عتبة إنه سيعرض أمورًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبِل ذلك، بل قال: قل يا" أبا الوليد "اسمع.. فهو يُكَنِّيه بِكُنْيَتِهِ، أي يُناديه بأحب

المنارة للاستشارات
ww

الأسماء إليه ويلاطفه ويرقق قلبه، ولما عرض عتبة بن ربيعة الأمور التي جاء بها لم يقاطعه النبي صلى الله عليه وسلم مع سفاهة العروض وتفاهتها، بل إنه صبر حتى النهاية وقال في أدب رفيع"أقد فرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم.. قال صلى الله عليه وسلم: »فاسمع مني[35].

لقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرصة كاملة لعتبة لكي يتكلم ويعرض وجهة نظره، وبعد انتهائه تمامًا بدأ هو في الكلام؛ ليضرب لنا بذلك أروع الأمثلة في التحاور مع الآخرين، وإن كانوا مخالفين تمامًا في العقيدة والدين.

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصر على التودد والملاطفة والرقة في الخطاب لزعماء الأعداء، بل كان يتجاوز ذلك إلى ثناءٍ ومدحٍ لهم، وذلك من باب "أنزلوا الناس منازلهم!!" **فها هو صلى الله عليه وسلم يمدح** سهيل بن عمرو وهو حينذاك من قادة المشركين حين جاءه يفاوضه في صلح الحديبية، ويقول للمسلمين: "لقد سَهُلَ أمركم" لما يعلمه من سهولة أمر سهيل بن عمرو وحسن طباعه..

واستمع إليه صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم عن خالد بن الوليد قبل إسلامه، وكان ذلك في العام السابع من الهجرة، أي بعد عدة مواقع حربية كان خالد بن الوليد فيها على رأس الجيوش المشركة، ومن أهمها غزوة أحد، وغزوة الأحزاب، وصلح الحديبية ..يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للوليد بن الوليد أخي خالد بن الوليد –كان الوليد مسلمًا حينذاك "أين خالد؟«"يعني لماذا لم يُسلِمْ خالد؟ فقال الوليد: يأتي به الله، فقال صلى الله وعليه وسلم "ما مثلُه جَهِلَ الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له، ولقدَّمناه على غيره"[36].

ومن الأمثلة العظيمة أيضًا التي تدل على احترام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزعماء غير المسلمين ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم، ويحرص على تكراره من ثناء ومديح للنجاشي ملك الحبشة .فإنَّه ما تردد صلى الله عليه وسلم أن يقول صراحةً: « **إن بها مَلِكًا لا يُظلَمُ عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ**[37]». إنه يمدح الملك النصراني بشيء هو فيه فعلاً، ولابد لكل إنسان من شيء إيجابي فيه يستحق المدح، ولكن ليس كل الناس قادرين على إبراز الحُسْنِ عند

المنارة للاستشارات
ww

غيرهم، بل يعتقد بعض قاصري الفهم من المسلمين أنه يجب ترك الثناء على غير المسلمين خوفًا من أن يكون هذا نوعًا من الموالاة أو التودد المرفوض. ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أن النصرانية التي كانت في الحبشة آنذاك كانت نصرانية محرَّفة كأي مكان في الدنيا، وظهر ذلك في موقف البطارقة من كلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عن المسيح عليه السلام، ومع ذلك فهذا التحريف لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر محاسنهم والثناء على فضائلهم.

ولم يكن هذا السلوك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه زعماء غير المسلمين سلوكًا عابرًا في حياته، وإنما كان أصلاً من الأصول التي يحتكم إليها صلى الله عليه وسلم في كل تعاملاته معهم، ويظهر هذا جليًّا في رسائله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض وزعمائها، فهو لم يختص واحدًا دون الآخر باحترام أو توقير، وإنما عاملهم جميعًا بمنتهى الدبلوماسية، وبأعلى درجات الأخلاق بصرف النظر عن مللهم ونحلهم: فقد كان مِنْهُمُ النصارى، ومنهم المجوس، ومنهم عبدة الأوثان، كما أنه لم ينظر إلى أعراقهم.. بل عظَّم الجميع من عرب ومن عجم...

وفيما يخص استقبال الوفود فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل المبعوثين في مكان خاص في مسجده وهو مقره الرئيسي، حيث بنى له دكة من طين كان يجلس عليها ويجلس أصحابه بجانبه وتعرف هذه الدكة حتى الوقت الحاضر في المسجد "**باسطوانة الوفود** "، وكانت تجلس عليه وفود العرب إذا جاءته.

كما راعى النبي صلى الله عليه وسلم أيضا مسالة الاهتمام بالوفود التي ترد إليه. فقد روي أنه كان يسكن الوفود في دور الصحابة ومن هذه الدور دار عبد الرحمان بن عوف التي يقال لها" الدار الكبرى"، وقد سميت بهذا الاسم لأنها أول دار بناها احد المهاجرين بالمدينة وكان عبد الرحمان ينزل فيها الوفود[38].

وبذلك فقد انتهج النبي عليه الصلاة والسلام أعرق الأعراف الدبلوماسية عند اهتمامه بإسكان وضيافة وإكرام الوفود التي تفد إليه.

المنارة للاستشارات
ww

الخاتمة:

هذه إذًا بعض معالم السياسة الدبلوماسية الشرعية، والتي عبَّرت عنها سيرة المصطفى عليه أزكى الصلاة العملية، والتي تُترجِم تلك الحُنْكة، والحكمة، والرَّويَّة، وبُعْد النظر، ورجاحة العقل القيادي السامي، التي مثَّلها رسول الله في مواقف كثيرة، من حُسْن تعامُله مع المخالفين له في الاعتقاد، سواء داخل أو خارج رُبوع الدولة الإسلامية، وقد كان تعامُله مع قضايا الدولة ورعاياها، يسوده العدل والمساواة والإنصاف؛ إذ لا فَرْق عنده عليه السلام بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله.

فدبلوماسية النبي صلى الله عليه وسلم ا تمثِّل مرحلة متقدِّمة في تطور الدبلوماسية في العالم، فإنها قد استوفت أهمَّ خصائص الدبلوماسية الحديثة التي تقوم على ارتباطٍ وثيق بين السياسة والقانون والإستراتيجية والاقتصاد، وإنَّ الرُّوح التي سادت الدبلوماسية جاءت منطبقةً على الحديث الشريف: ((أنا نبيُّ الرَّحمة، أنا نبيُّ الملحمةِ))؛ هذا الحديث الكريم الذي يوفِّق بين الرحمة والعدلِ والسياسة والحرب

وما زالت الدبلوماسيَّة الإسلامية في حاجة إلى مزيدٍ من البحث والتَّحقيقِ، ولهذا نقترح عدة توصيات وهي كالآتي:

- إدخال مادة الدبلوماسية الإسلامية في مناهج العلوم السياسية والدبلوماسية في الجامعات والمعاهد العربية
- ضرورة قيام دورات تاهيلية خاصة للسفراء والملحقين الدبلوماسيين لتأهيلهم وإعدادهم وتزويدهم بالمعرفة الإسلامية في الجانب الدبلوماسي.
- الدعوة لإصدار وثيقة عالمية لاحترام المقدس الديني في الشأن الدبلوماسي ومنع اهانة الرموز الدينية المحترمة في أي دين
- ضرورة الاعتذار صراحة على الصنفين المحرمين: وهي تداول الخمر ولحم الخنزير في الموائد الدبلوماسية واعتبار ذلك من خصائص هذه الأمة وعدم السماح بالمجاملات في هذا والتأكيد أن المحرم محصور في هذا الاستثناء

المنارة للاستشارات
ww

المراجع:

1. القران الكريم
2. البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ).**الجامع الصحيح**.دار الشعب – القاهرة.الطبعة: الأولى، 1407 – 1987. الحديث رقم: 5877.(203/7).
3. البخاري . الأدب المفرد.المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي.الناشر: دار البشائر الإسلامية. بيروت.[ط: 3، 1409 – 1989].
4. مسند الإمام أحمد بن حنبل.الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة.(4256).
5. سنن ابن ماجة.الناشر: مكتبة أبي المعاطي.كتاب الأدب(660/4).
6. الحافظ السخاوي . المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. دار الهجرة بيروت ط 1406هـ-1986م.
7. محمد بن عفيفي الخضري. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. الناشر: دار المعرفة بيروت– لبنان.ط 1، [1425هـ/ 2004م].
8. سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي).المحقق: محمد حميد الله.الناشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف
9. أحمد عجاج كرمى. الناشر: دار السلام . القاهرة. سنة الطبع: 1427 هـ. الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
10. أحلام عباسي، التمثيل الدبلوماسي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقال منشور في الموقع الالكتروني http: //www.alukah.net/ تاريخ: 8/1/2014ميلادي – 1435/3/7 هجري.
11. راغب سرجاني، دبلوماسية النبي مع الزعماء خلق نبوي أمر الهي، مقال منشور في الموقع الالكتروني islamstory.com.
12. جمال احمد جميل نجم، أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي، أطروحة ماجستير في نابلس فلسطين، 2008، ص68.
13. سهيل حسين الفتلاوي، أسلوب المذكرات الدبلوماسية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مقال منشور في الموقع الالكتروني http: //m233.blogspot.com/في 06_11_2005 .
14. سهيل حسين الفتلاوي، القانون الدبلوماسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط2010، 1.
15. عباس حلمي، الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي مقال منشور في الموقع الالكتروني:

http://www.alukah.net/ تاريخ: 11/11/2012ميلادي – 1433/12/27 هجري.

المنارة للاستشارات
ww

16. علي حسين الشامي، الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط2010، 5م .

17. محمد إبراهيم جريبان، الأمن الدبلوماسي في الإسلام، مقال منشور في مجلة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد 24، العدد الأول، 2008.

18. محمود مصطفى حلاوي. النظم الإسلامية في عصر صدر الإسلام. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم. بيروت لبنان.(دط–دس).

19. ياسين ميسر عزيز العباسي، الحق في تبادل وإنهاء التمثيل الدبلوماسي الإسلامي، دار الفكر الجامعي، إسكندرية، مصر، ط2014، 1.

الهوامش:

1- الآية رقم 159 من سورة آل عمران

2- لم تعرف كلمة «دبلوماسية» في صدر الإسلام، ويبدو أنها دخلت في معاجم اللغة في فترة متأخرة. بخلاف كانت كلمة (سفارة) فقد كانت معروفة في مكة قبل الإسلام، وكانت هذه الوظيفة لبني عدي، وممن تولاها منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت 23 هـ). أحمد عجاج كرمى. الناشر: دار السلام . القاهرة. سنة الطبع: 1427 هـ. الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ص128.

3- ا.د علي حسين الشامي، الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط5، 2011م ص35

4- الآية رقم 124 من سورة الأنعام

5- ا.محمد إبراهيم جريبان، الأمن الدبلوماسي في الإسلام، مقال منشور في مجلة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد 24، العدد الأول، 2008، ص618.

6 – محمود مصطفى حلاوي. النظم الإسلامية في عصر صدر الإسلام. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم. بيروت لبنان. ص 32.

7 – المرجع السابق. ص 34.

8- نفس المرجع. وانظر: عباس حلمي، الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي مقال منشور في الموقع الالكتروني :http www.alukah.net/// تاريخ: 11/11/2012ميلادي – 1433/12/27 هجري. قال أحمد عجاج: وكان المكسب الأكبر الذي حققه النبي صلّى اللّه عليه وسلم من مكاتباته تلك أنها جاءت حملة إعلامية على النطاق الدولي لإظهار أن الإسلام للناس كافة. مرجع سابق.ص 130.

المنارة للاستشارات
ww

9- قال أحمد عجاج كرمي: " وكان ما وصلنا من كتب ومواثيق ومعاهدات قام بإبرامها النبي صلّى اللّه عليه وسلم تتجاوز المئتين وخمسين كتابا، وشملت معاهدات مع اليهود والنصارى، وعقود صلح بين النبي صلّى اللّه عليه وسلم والقبائل، وكتب إقطاع وأمان ورسائل دعوة إلى رؤساء القبائل والملوك والأمراء، مما يجعلنا نؤكد على أن سفارات الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وكتبه كانت عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية والعلاقات الدولية" . مرجع سابق.ص128.

10- أ.جمال احمد جميل نجم، أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي، أطروحة ماجستير في نابلس فلسطين، 2008، ص68.

11- الآية رقم41 من سورة هود.

12- الآية رقم 110 من سورة الإسراء.

13- الاية رقم 30 من سورة النمل.

14- أ.سهيل حسين الفتلاوي، أسلوب المذكرات الدبلوماسية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، نمقال منشور في الموقع الالكتروني http: //m233.blogspot.com/في 06_11_2005 .

15- يقول القلقشندي (ت 821 هـ): "و كان العجم يبدؤون بملوكهم إذا كتبوا، والرسول كتب فبدأ بنفسه، وكان أصحاب رسول اللّه وأمراء جيوشه يكتبون إليه فيبدؤون بأنفسهم كما كان يكتب إليهم". نقلا عن أحمد عجاج كرمي. مرجع سابق.ص: 134.

16- أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث إبراهيم بن أبي عبلة سمعت أم الدرداء تخبر عن أبي الدرداء مرفوعا: إذا كتب أحدكم....." وإسناده ضعيف. الحافظ السخاوي . المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. دار الهجرة بيروت ط 1406هـ-1986م.ص: 43-44. أحمد عجاج كرمي. مرجع سابق.ص: 134.

17- قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ آل عمران[159].

18- ومن ذلك أنه قال لقيصر: "عظيم الروم"، ولكسرى: "عظيم فارس" وللمقوقس: "صاحب مصر". وللنجاشي: "«ملك الحبشة".وهكذا. أحمد عجاج.مرجع سابق.ص134.

19 - أ .سهيل حسين الفتلاوي، أسلوب المذكرات الدبلوماسية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق.

20 - أ.سهيل حسين الفتلاوي، القانون الدبلوماسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص72.

21- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ).الجامع الصحيح.دار الشعب – القاهرة.الطبعة: الأولى، 1407 – 1987. الحديث رقم: 5877.(203/7).

22- أحلام عباسي، التمثيل الدبلوماسي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقال منشور في الموقع الالكتروني http: //www.alukah.net/ تاريخ: 8/1/2014ميلادي - 1435/3/7 هجري.

المنارة للاستشارات
ww

23- الأحمدي، علي بن حسين بن علي، مكاتيب الرسول صلى الله عليه وسلم، بيروت، دار صعب، (دط-دس) (1 / ص 32). نقلا عن أحمد عجاج كرمى. مرجع سابق.ص: 136-137.

24- حدث البخاري في صحيحه من حديث أبي سفيان رضي الله عنه: " أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ فَأَتَوْهُ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقُرِئَ فَإِذَا فِيهِ: « **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ**». **الحديث رقم:** 6260.

25- جاء في الأدب المفرد: عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: "**رَأَيْتُ رَسَائِلَ مِنْ رَسَائِلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، كُلَّمَا انْقَضَتْ قِصَّةٌ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ**".البخاري.المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي.الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت.[ط: 3، 1409 – 1989].ص: 383. وكلمة أما بعد قيل هي فصل الخطاب الذي أوتيه سيدنا داود عليه السلام، يأتي بها من أراد أن يتكلم بكلام غير الذي هو فيه، بمعنى الآنتقال من كلام إلى آخر.

26- أحمد عجاج كرمى.مرجع سابق.ص135.

27- المرجع السابق ص133. نقلا عن ابن سعد في الطبقات.

28- وقد ذكرت المصادر أسماء هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى الملوك، وأرسل معهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وعبد اللّه بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وعمرو بن أمية الضمري (ت 60 هـ) إلى النجاشي ملك الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة (ت 30 هـ) إلى المقوقس ملك مصر «4»، وعمرو بن العاص (43 هـ) إلى جيفر وعيّاد ملكي عمان، وسليط بن عمرو (ت 14 هـ) إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي ملكي اليمامة، والعلاء بن الحضرمي (ت 14 هـ) إلى المنذر بن ساوى (ت 11 هـ) ملك البحرين، وشجاع بن وهب الأسدي (ت 12هـ) إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك تخوم الشام.المرجع السابق.ص128.

29- قد نهج النبي صلّى اللّه عليه وسلم في اختيار رسله أمرا لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري لدى الدبلوماسية الحديثة، من تبادل السفراء، ومراعاة الأناقة، وجمال الخلقة، والكفاءات الممتازة بصفتهم ممثلين لأمتهم؛ ولذلك فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ويشير إلى ذلك ابن قتيبة (ت 276 هـ) بقوله: «إن جبريل كان يجيء على صورة دحية الكلبي؛ لأن دحية كان من أجمل أهل زمانه، وأحسنهم صورة»، وهذا يصدق على بقية رسله. أحمد عجاج كرمى.مرجع سابق.ص130.

30- المرجع السابق.ص.130.

31- محمد بن عفيفي الخضري. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. الناشر: دار المعرفة بيروت- لبنان.ط 1، [1425هـ/ 2004م].ص: 147.

32- أحمد عجاج كرمى.مرجع سابق.ص132

33- فصلت: [1..5].

المنارة للاستشارات
ww

34- سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي).المحقق: محمد حميد الله.الناشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف –(188/4).

35- راغب سرجاني، دبلوماسية النبي مع الزعماء خلق نبوي أمر الهي، مرجع سابق.

36- المرجع السابق.

37- مسند الإمام أحمد بن حنبل.الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة.(4256).

38- أ.سهيل حسين الفتلاوي، القانون الدبلوماسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص74

المنارة للاستشارات
ww